

**ملحمة جلجامش**،<sup>[1]</sup> قصيدة ملحمية من آداب بلاد الرافدين القديمة وتُعدّ أقدم الأعمال الأدبية العظيمة ، يبدأ التاريخ الأدبي لملحمة جلجامش بخمس قصائد سومرية عن (بل كاميش / كلكاميش)، ملك الوركاء، يعود تاريخ الملحمة إلى عصر سلالة أور الثالثة. استُخدمت هذه القصص المتفرقة فيما بعد كمصدر مرجعي لقصيدة ملحمية مجمعة في اللغة الأكديّة. تحمل أقدم نسخة متبقية من تلك الملحمة المسمّاة اسم «البابلي القديم»، ويعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، لم يتبقّ من تلك القصيدة سوى بضعة ألواح طينية. أما النسخة التالية «القياسية» التي جمعها سين-لّقي-ونيني يعود تاريخها إلى ما بين القرنين الثالث عشر والعاشر قبل الميلاد وتحمل الاسم (هو الذي رأى )،

تقريباً تمّ استرجاع ثلثي هذه النسخة ذات الألواح الطينية الاثني عشر. اكتُشفت بعض النسخ الأفضل حالاً في أنقاض مكتبة آشور بانيبال الملكية من القرن السابع قبل الميلاد.

يدور القسم الأول من القصة عن جلجامش، ملك الوركاء، وإنيكدو، وهو رجل جامع خلقته الآلهة لوضع حدّ لطغيان جلجامش على شعب الوركاء. بعد أن يتأنس إنيكدو عبر إقامته علاقة جنسية مع مومس، ينطلق إلى مملكة الوركاء، حيث يطلب تحديّ جلجامش لاختبار مقدار قوته. يفوز جلجامش في التحدي، ومع ذلك، يصيح الرجلان صديقين، وينطلقان معاً في رحلة تدوم لستة أيام إلى غابة الأرز السحرية، حيث يخططان لقتل الحارس، خومبابا الرهيب، وقطع شجرة الأرز المقدسة.<sup>[2]</sup> تُرسل الإلهة عشتار ثور الجنة لعقاب جلجامش على رفضها التقرب منه. يقتل جلجامش وإنيكدو ثور الجنة، وعلى إثر ذلك يتخذ الآلهة قرارهم بالحكم على إنكيدو بالموت، ويقتلونه.

في الجزء الثاني من الملحمة، يدفع الأسي على موت إنكيدو بجلجامش إلى القيام برحلة طويلة محفوفة بالمخاطر لاكتشاف سرّ الحياة الأبدية. في نهاية المطاف يكتشف أن «الحياة التي تسعى في إثرها لن تنالها أبداً. لأن الآلهة عند خلقها البشر، جعلت الموت من نصيبهم، واستأثرت بالخلود نصيباً لها وحدها.

على أيّ حال، فقد طارت شهرة جلجامش في الأفاق، وعمّرت طويلاً بعد موته، بسبب مشاريعه العمرانية العظيمة، ونقله لنصيحة أسدتها له سيدوري، وما أخبره إياه الرجل الخالد أوتنابيشتم عن الطوفان العظيم؛ ولقيت قصة الملحمة اهتماماً متزايداً وترجمت إلى العديد من اللغات وتظهر في العديد من الأعمال الأدبية الشهيرة.

تبدأ الملحمة بالحديث عن جلجامش، ملك أورك - الوركاء الذي كانت والدته إلهة ووالده بشرا فانيا ولهذا قيل بأن ثلثيه إله وثلث الباقي بشر. وبسبب الجزء الفاني منه يبدأ بإدراك حقيقة أنه لن يكون خالداً. تجعل الملحمة جلجامش ملكاً غير محبوب من قبل سكان أورك؛ حيث تنسب له ممارسات سيئة منها ممارسة تسخير الناس في بناء سور ضخم حول أورك العظيمة.

ابتهل سكان أورك للآلهة بأن تجد لهم مخرجا من ظلم جلجامش فاستجابت الآلهة وقامت إحدى الإلهات، واسمها أرورو، بخلق رجل من الطين وحي كان الشعر الكثيف يغطي جسده ويعيش في البرية يأكل الأعشاب ويشرب الماء مع الحيوانات؛ أي أنه كان على النقيض تماما من شخصية جلجامش. ويرى بعض المحللين أن هناك رموزا إلى الصراع بين المدنية وحياة المدن الذي بدأ السومريون بالتعود عليه تدريجيا بعد أن غادروا حياة البساطة والزراعة المتمثلة في شخصية أنكيدو.

كان أنكيديو يخلص الحيوانات من مصيدة الصيادين الذين كانوا يقتاتون على الصيد، فقام الصيادون برفع شكواهم إلى الملك جلجامش؛ فأمر إحدى خادمتي المعبد بالذهاب ومحاولة إغراء أنكيديو ليمارس الجنس معها؛ وبهذا تبتعد الحيوانات عن مصاحبة أنكيديو ويصبح أنكيديو مروضاً ومدنياً. حالف النجاح خطة الملك جلجامش، وبدأت خادمة المعبد - وكان اسمها شمخات، وتعمل خادمة في معبد الآلهة عشتار - بتعليم أنكيديو الحياة المدنية؛ ككيفية الأكل واللبس وشرب النبيذ، ثم تبدأ بإخبار أنكيديو عن قوة جلجامش وكيف أنه يدخل بالعروضات قبل أزواجهن. ولما عرف أنكيديو بهذا قرر أن يتحدى جلجامش في مصارعة ليجبره على ترك تلك العادة. يتصارع الاثنان بشراسة؛ فهما متقاربان في القوة، ولكن الغلبة في النهاية كانت لجلجامش، حيث اعترف أنكيديو بقوة جلجامش، وبعد هذه الحادثة يصبح الاثنان صديقين حميمين.

يحاول جلجامش دائماً القيام بأعمال عظيمة ليبقى اسمه خالداً؛ فيقرر في يوم من الأيام الذهاب إلى غابة من أشجار الأرز؛ فيقطع جميع أشجارها، وليحقق هذا عليه القضاء على حارس الغابة، وهو مخلوق ضخم وقبيح اسمه خومبابا. ومن الجدير بالذكر أن غابة الأرز كان المكان الذي تعيش فيه الآلهة ويعتقد أن المكان المقصود هو غابات أرز لبنان.

## سفر جلعامش وانكيدو الى جبال الارز :

وبعد أن انقعدت أواصر الصداقة ما بين جلعامش وانكيدو عزم جلعامش على القيام بسفر بعيد في مغامرة الى غابات الارز المسحورة ليخلد له اسما في سجل الخالدين ، ولعله كذلك من اجل أن يرفقه عن صديقه الذي يبدو انه سئم حياة الحضارة وصار يحن الى حياته الاولى يوم كان حرا طليقا في البوادي . وبعد حوار بين الصديقين ابدى فيه « انكيدو » مخاوفه من تلك المخاطرة التي تتطوي عليها الرحلة، لاسيما ان الغاية وكل الاله « انليل » على حراستها العفريت المارد « خمبابا » أو ( خواوا ) الذي تبعث هيته الرعب وان نفسه الموت الزؤام . وبعد ان

افتح جلعامش صديقه اصدر اوامره الى صانعي الاسلحة فصنعوا له  
سيوفاً واسلحة هائلة فثاكة . وقد حاول شيوخ الوركاء أن يثنوا جلعامش  
عن ركوب تلك المخاطر ، فقالوا له من بين ما قالوا : « يا جلعامش انت  
فتى وقد حملك قلبك مدى بعيدا ، وانت لا تعلم عاقبة ما انت مقدم عليه .  
انا سمعنا عن خمبابا أن بنيتة مخيفة ، ولا شيء يصمد أمامه ، والغبابة  
تمتد مسافة عشر ساعات مضاعفة في كل الجهات ، . ولكن جلعامش لم  
يسمع نصيح شيوخ مدينته ، وعندئذ دعوا له بسلامة للعودة وزودوه  
بالنصائح . وقيل أن يشرع بالسفر زار مع « انكيدو » مبدالالهة  
« نسون » ، أم جلعامش ليسأل منها البركة والنجاح ، فصلى لها  
و خاطبها : « يا نسون ، ائذني لي أن أخبرك بأنني اعتزمت سفرا بعيدا ،  
الى موطن خمبابا . واني مقدم على نزال لا أعرف عاقبته ، والسير في  
حرق لا أعرف مسالكها . فحتى اليوم الذي أذهب فيه وأعود والى أن  
أبلغ غابة الارز واذبح خمبابا المارد وأمحو من على وجه الارض كل  
شر يمقته شمس ، تشفعي لي عند شمس » . فأستجابت الالهة « نسون »  
الى موطن خمبابا . واني مقدم على نزال لا أعرف عاقبته ، والسير في  
تاجها على رأسها وصعدت على السطح واحرقت البخور الى شمس ورفعت  
يديها اليه وخاطبته : « علام اعطيت ولدي جلعامش قلبا مضطربا  
لا يستقر ؟ والآن حثته فاعتزم سفرا بعيدا الى موطن خمبابا . فالى أن  
يذهب ويعود ويبلغ غابة الارز ويقتل خمبابا ويمحو من الارض كل  
شر تمقته ، عسى أن تذكرك عروسك « آي » ، (\*) باليوم الذي ترجعه  
فيه ، ولتوكل به حراس الليل والكواكب واباك « سين » ، (\*\*). حين تحتجب

انت في المساء ... » ثم اطلقت البخور وعودت وأحضرت اليها الكاهنات  
والبنايا والمتبتلات ودعت اليها « أنكيديو » واوصته قائلة : « يا أنكيديو  
القوي الذي ليس من رحمي قد اتخذتك منذ الآن ولدا » ثم قلدت عنقه  
بقلادة جواهر لتكون منه موثقا واردفت قولها : ها انني أتمنك على ولدي  
فأرجمه الي سالما . »

وبعد سفر شاق طويل شارفا على مدخل الغابة ، وكان مدخلا عجيبا  
حيث أشجار الارز العالية ووجدا عند المدخل عفريتا عينه « خيابا »  
لحراسته ، فقتله الصديقان . وبعد مصاعب استطاعا أن يوغلا في الغابة ،  
وشاهدا من عجائبها جبل أرز خاص أقيم فوقه عرش الالهة « اريني »  
( عشتار ) . ولما سرع جلعامش في قطع أشجار الارز عند الصباح سمع  
العفريت الصوت فهجم عليهما ، فحل بهما الرعب وجبنا عن ملاقاته ، ولكن  
الاله « شمش » بادر الي نجدتهما بأن أهاج الرياح العاتية التي أمسكت  
بخيابا وشلته عن الحركة فاستسلم لهما وتضرع أن يبقيا عليه ويأسراه  
فيكون خادما لهما ، فكاد جلعامش أن يعضو عنه ولكن « انكيديو » حرّضه  
على قتله فقتلاه وقطعا رأسه . »

وهكذا انتهت مغامرة غابة الارز بنجاح البطلين وعودتهما سالمين  
منتصرين . ولما عاد البطلان تهيأ للاحتفال بالنصر فارتدى جلعامش  
الحلل الزاهية ولبس تاجه وصقل سلاحه ، ولما ان رأته الالهة عشتار  
اسرها جماله وتعلق قلبها بحبه فنادته وخاطبته قائلة : « تعال يا جلعامش  
وكن عريسي المختار ، وامنحني ثمرتك اتمتع بها ... ساعد لك مركبات  
من حجر اللازورد والذهب ... وستربط لجرها شياطين الصاعقة  
بدلا من البغال . وفي بيتنا ستجد شذى الارز يعبق فيه اذا ما دخلته .  
وستقبل قدميك العتبة والدكة . سينحني لك الملوك والحكام والامراء ،  
وسيقدمون لك الاثاوة من نتاج السهل والجبل ، وستلد عنزاتك ثلاثا

تلاتا ، وتلد ، اجك التوائم ...» ولكن جلعاش رفض عرض عشتار ولم يقتصر على رد طلبها بل انه أهانها وعدد مآلبها وهناتها وما احلته من الويلات والهلاك بعشاقها السابقين فكان من جملة ما قال لها :

« ماذا علي أن أعطيك لو اخذتك زوجة ؟

هل سأعطيك السمن والكساء ؟

وأني أكل وشراب سأعطيك مما يليق بالالوهية ؟...»

أي خير سأنا له لو تزوجتك ؟

أنت ! ما أنت إلا الموقد الذي تخمد ناره في البرد .

أنت كالباب الخلفي لا يصد ريحا ولا عاصفة !

أنت قصر ينحطم في داخله الابطال .

أنت فيل يمزق رحله .

أنت قير يلوث من يحميه .

أنت قرية تبلل حاملها ...»

أنت نعل يقرص قدم متعلمه ...»

أي من العشاق الذين اخترتهم من أحبيته على الدوام ؟

تعالني أقص عليك مآسي عشاقك :

من أجل تموز(\*) ، حبيب صباك فرضت البكاء والنوح عليه سنة

بعد سنة(\*) وأحبيت طير الشقراق ولكنك ضربته وكسرت جناحيه ، وها

هو ذا حاط في البساتين يصرخ نادبا : جناحي ! جناحي ! »

« وأُحِبُّ الأسدَ الكاملَ القوَّةَ ، ولَكِنَّكَ حَفَرْتَ لَهُ سَبْعَ وَسَبْعِينَ  
وَبْرَانًا ، وَأُحِبُّ الحِصَانَ المَجَلِّيَّ فِي السِّبَاقِ وَالْبِرَّازِ ، وَلَكِنَّكَ سَلَطْتَ  
عَلَيْهِ السُّوْطَ وَالْمِهْمَازَ وَالسِّرَّ ، وَحَكَمْتَ عَلَيْهِ بِالْعَدُوِّ سَبْعَ سَاعَاتٍ مُضَاعَفَةً  
وَقَضَيْتَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَرِدَ المَاءَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَعْكَرَهُ (\*) ، وَأَنْ تُوَاصَلَ أُمَّ  
« سَلِيلِي » الْبَكَاءِ عَلَيْهِ . »

وهكذا يسئمن جلعجامش في تعداد عشاق عشتار السابقين الذين  
غدرت بهم ، ويمعن في اهانتها (\*\*\*) ، وعندها استشاطت غيظًا وعرجه  
إلى سماء أبيها « آنو » ، وبكت أمامه وشكت له ما أصابها من جلعجامش  
وطلبت منه أن يخلق لها ثورًا سماويًا ليهلك جلعجامش ، وإنها إن لم يفعل  
ذلك فستحطم باب العالم الأسفل وتدع الموتى يقومون منه ويأكلوا  
كالاحياء ، ويصبحون أكثر عددا منهم . وبعد ممانعة من « آنو » رضيه  
لطلبها وخلق « الثور السماوي » ، وسلمه إلى عشتار فأنزلته إلى بلا

« اوروك » واخذ يفتك بأهلها وسقط المئات من رجال الملك • وعند ذلك انبرى البطلان جليجامش و « انكيديو » لمصارعته حيث تصف لنا الملحة مشهدا أشبه ما يكون بمصارعة الثيران في اسبانية • واستطاع البطلان أن يقضيا عليه ويقنعا قلبه ويقرباه الى الاله « شمش » • أما عشتار فانها اعتلت أسوار المدينة وصارت تقذف البطلين بلغزاتها ، فلم يكن من « انكيديو » الا أن قطع فخذ الثور وقذفه بوجه عشتار ، فجمعت بنفايا المعبد وأنامت النواح على فخذ « الثور السماوي » • وكان هذا الثور مخلوقا عجيبا ، قرناه من حجر اللازورد ، وزن كل منهما ثلاثون « مناء » • وسار البطلان في دروب الوركاء مختالين محتفلين بنصرهما ، وتجمع حولهما الناس ، وصار جليجامش يخاطب وصيقات قصره وعذارى المدينة : « من الامجد بين الرجال ومن أقوى الرجال ؟ » فيجيبه :

« جليجامش الاقوى بين الابطال ، جليجامش زين الرجال ! » •